الشاعر المطبوع

أبو عبادة البحتري

تفصيل حياته، دراسة شاعريته، تحليل أقواله

للأستاذ

محمود مصطفى

مدرس الآداب بكلية اللغة العربية

من الجامعة الأزهرية

الطبعة الأولى

١٣٥٤ هـ — ١٩٣٥ م

طبع على نفقة ناشره

سيد موسى شريف

المطبعة الرحمانية بمصر

شارع الخرنفش رقم ٣٥ تليفون ٥١٥٢٢

obeikandl.com

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على محمد رسوله أشرف المرسلين . وبعد فهذه ترجمة لحياة الشاعر المطبوع « أبى عُبادة البحترى » اجتهدنا أن نصور بها للقارئ عبقرية هذا الشاعر الفذ ، ففصلنا القول فيها تفصيلا يدنيها من الأفهام ، ولم نأل جهدا فى توضيح عباراتها وتفسير أبياتها ، حتى تكون غنية بنفسها قائمة بذاتها . كما صببنا اهتمامنا على اختيار المحاسن الفائقة مما قال هذا الشاعر النابه ، فلم نترك له قصيدة مشهورة إلا روينا منها ما يروى الغلة

ورجاؤنا إلى الله سبحانه وتعالى أن ينفع بها طلابها والسلام ؟

١٢ رجب سنة ١٣٥٤
١٠ اكتوبر سنة ١٩٣٥

محمود مصطفى

البحـــترى

بيئته العامة

لابد فى دراسة حياة الأديب من الإلمام بما كانت عليه بيئته العامة من جهتيها السياسية ، والاجتماعية ؛ لما لكل ذلك من أثر ظاهر فى تكوين ذلك الأديب ، ومبلغ ثقافته ، واتجاه فكرته فى أدبه . فلولا هذه الدراسة لكانت مظاهر الحياة الخاصة فيه ، نتائج لاتعرف أسبابها ، ولوازم لاتدرى موجباتها .

لذلك نصف من بيئة البحترى العامة ، حالتيها السياسية والاجتماعية فنقول :

البيئة السياسية

عاش البحترىّ فيما بين سنة ٢٠٦ ، ٢٨٥ هـ أى فى القرن الثالث الهجرى من مفتتحه إلى قريب من نهايته ، فى أيام الدولة العباسية التى بدأت منذ عام ١٣٢ هـ فبلغت أوْجَها ، نفوذاً فى السياسة ، وعروجاً فى مراقى العلم ، على أيام الرشيد والمأمون ابنه . ولكنها لم تكن بعد ذلك فى أيام البحترى بتلك المثابة ، إذ كان الموالى قد صار لهم فى الدولة شأن عظيم ، وقوة قاهرة ، فجعلوا يتحكمون فى الخلفاء عزلا وتنصيباً ، وكانت موارد الدولة فى أيديهم يتصرفون بها فيما يرضى رغباتهم ويشبع نهمهم .

هؤلاء الموالى هم عنصر غير الذى قامت به الدولة ، هم غير هؤلاء الفرس الذين كانوا شيعة العباسيين فانتزعوا لهم السلطان من أيدى الدولة الأموية . هم أولئك الأتراك الذين استكثر منهم الخليفة المعتصم بن الرشيد ليناوئ بهم الفرس والعرب ، فما لبثوا أن استشرى أمرهم حتى كانوا قوة على الخلافة ، لا لها .

فهم الذين قتلوا المتوكل ، وخلعوا المستعين ، والمعتز ، والمهتدى ، فى الفترة

التى عاش فيها البحترى ، وفعلوا بغيرهم الأفاعيل بعد هذه الفترة .

تلك هى البيئة السياسية التى عاش فيها البحترى ، وهى بيئة تولى السلطان فيها قوم أهل شراسة وغَشْم ، ليسوا كالفرس ذوى الدهاء والحزم والمدنية السابقة .

لذلك رأينا الأمور تضطرب ، والخلفاء يضعف شأنهم وتقل مهابتهم ، وتغل أيديهم عن أموال الدولة ، على خلاف ما كان من أيام أسلافهم . ففتر نشاط الشعراء حين قلت موارد كسبهم ، وشكوا ذلك فى قصائدهم ، بعد أن كان الرشيد وابنه المأمون يجودان فى سبيل العلم والأدب بما لا نكاد نصدقه لغرابته وعظيم مقداره .

فمثل هذه البيئة جديرة أن تقلل إلى حد ما ، نشاط الذهن فى الشاعر والعالم فلا يكون نِتاجهما كنِتاج من عاش فى عصر كثر فيه التشجيع على العلوم والفنون

البيئة الاجتماعية

بقى العرب إلى أواخر الدولة الأموية مستمسكين بالأخلاق العربية الكريمة من إباء وعزة نفس ، وحياطة للعرض ، وترفع عن الدنايا ، كما كانوا مستمسكين بدينهم مقيمين فى الغالب لمناسكه ، لايجاهرون بمعصية ولا يستهترون بموبقة ، حتى كانت الخلطة الشاملة بالأمم المجاورة (خصوصاً الفرس) فى أيام الدولة العباسية فاستبيحت المحرمات ، وجاهر الناس بالمعاصى ، وتبعوا الفرس فى كثير من عاداتهم (والفرس إباحيون فى كثير من أمورهم) . فكان من نتائج ذلك أن شاع الفسق وأحلت المحارم ، وتبجح مرتكبوها بها ، ووصفت الدعارات فى الشعر ، مما تراه مستفيضاً فيما تقرأ لأهل هذا العصر ، ولاترى له مثيلا فى شعر أهل الدولة السابقة .

هذه هى جناية هذه المدينة الفارسية على السذاجة العربية ، جعلت حياة المدن فى المملكة الإسلامية موبوءة بكل ما استطاع الشيطان أن يغرى به بنى آدم .

تلك هى البيئة التى كان يعيش فيها البحترى ، جنت عليه بلا شك ، فرأينا فى شعره عُهْرًا و إن قلّ ، ورأيناه لايستحيي أن يتغزل فى غلامه « نسيم » وما كان عربى يفعل ذلك قبل الإسلام ولا بعده ، لولاعدوى هذه المدنية الفارسية.

كذلك كان من أثر هذه الخلطة أن ذلت نفس العربى حين رأى المال يستولى عليه الحكام وأصحاب السلطان ، فلا يستطيع استخلاص قوته من أيديهم إلا بالملق . فكثر ذلك من الشعراء الذين لم يعرفوا لهم مرتزقاً غير استجداء العظماء ، ورأينا منهم تهافتاً فى هذا الباب و إسرافاً فى إجلال ممدوحيهم حتى خرجوا بالمبالغة إلى حد الكفر أو قريب منه .

كما كان من أثر تهافت الشعراء على العظماء ، وكثرتهم حولهم أن قبض هؤلاء أيديهم عنهم إلا قليلا ، فكثر الهجاء و بالغوا فيه حتى أفحشوا وتناولوا الأعراض بما لم يكن له نظير فى العصور السابقة .

وكذلك كان البحترى أحد شعراء هذه الفترة التى نصفها ، يمدح و يهجو من أجل المال ، وذلك هو الشأن فيه وفى غيره من الشعراء من أمد بعيد ، و إن كان الحال فى هذه الفترة أشد وأشنع .

حياة البحترى الخاصة

نسبه : هو الوليد بن عُبَيد الله ينتهى نسبه إلى بُحْتُر ثم إلى طيء ثم إلى قحطان . وهو عربى صميم لأن أمه كما ذكر فى شعره عربية كذلك . قال :

بَنِي ناهلٍ مهلا فإن ابن أختكم له عَزَمات هَزْل آرائها جِدّ

وقد كان البحترى يفخر بآبائه ، فمن ذلك قوله

و إذا ما عَدَدْتُ يحيى وعَمْرًا وأَبانًا وعامرا والوليدا
وعُبَيْدًا ومُسْهِرًا وجُدَيًّا وتَدُولاً و بُحْترًا وعَتُودا
لم أدع من مناقب المجد ما يقـ ـنع من هَم أن يكون مجيدا
ذهبتْ طيءٌ بسابقة المجـ ـد على العالمين بأسًا وجودًا

نشأته وتصرفه

ولد بمدينة مَنْبِج سنة ٢٠٦ هـ . ومنبج هذه تقع بين حلب والفرات وكان يضرب على شواطىء الفرات كثير من قبائل طيء ، فكان يختلف إليهم ، فنشأ عربى اللهجة كما هو عربى النسب

ومَنْبِج التى كانت منشأه وحلَب التى كان يتردد عليها ، والصقع كله الذى كان مستراده ومذهبه ، ومَرَاحه ومَغْدَاه ، كل ذلك كان له في نفسه منزلة كبيرة ، فلم يَفْتُر عن ترديد ذكر هذه البلاد فى شعره ، بعد أن صار إلى العراق ، ومدح الخلفاء ونادمهم

وإنك لتظفر بأسباب تعلقه بموطنه الأول مما رددده فى شعره من الحنين إليه . ومرجع ذلك إلى حسن الهواء ، وطيب الماء ، وفتنة الطبيعة ، وما كان له فيه من هوى يجذبه إليه ، إذ عشق عَلْوَة بنت زُرْعة الحلبية ، ولعلها كانت الحبيب الأول ؛ فإنه لم يفتر عن ذكرها والنسيب بها فى قصائده التى مدح بها المتوكل وغيره .

ثم يظهر أنه كان يعيش بمنبج فى عزة من قومه ، وشرف قديم لبيته . وتلك أسباب لا يَعْدِل [1] الوطن معها شيء

فأما فتنته بجمال بلاده فيدل عليها قوله :

حنَّتْ رِكَابى بالعراقِ وشاقنى فى ناجر بَرْد الشآم وريفها [2]

وقوله :

ذكَّرْتَنَا بَرْد الشآم وعيشَنا بين القباب البيض والهضَبات [3]

---

(١) يقال عدله يعدله وعادله يعادله أى ساواه وماثله

(٢) حن : مال . الركاب : الإبل . ناجر : رجب أو صفر أو كل شهر من شهور الصيف .

(٣) القباب : جمع قبة وهى البناء المسنم ، ولعله يريد الخيام لأنه يذكر الحنين إلى موطنه وكان بدويا معيشة أهله فى الخيام

وأما ما يدل على أن الشام مسكن هواه فقوله :

وقد حاولتُ أن تَخِد المطايا إلى حيّ على حلب حُلول
ولو أنى ملكت إليك عزمى وصاتُ النص فيها بالذميل (١)

وقوله :

جفوتُ الشام مَرْتبعى وأنسى وعلوَةُ خُلتى وهوى فؤادى (٢)

وأما كرم محتده وعراقة مجده ففى قوله

جَدّى الذى رفع الأذان بمنبج وأقام فيها قِبلة الصلوات

مبلغ الحقيقة فى دعاوى البحترى

والحق أن للخيال الشعرى والدعوة الكاذبة من الشعراء أثرا فى بعض تلك الحقائق التى أحب البحترى أن يلزمنا الاعتراف بها . فقد أرانا أنه كان فى بلاده فى أرغد عيش وأكرم منزلة ، حتى لقد جعل ذلك مضرب المثل فى قوله لأبى نَهْشَل مادحاً شاكرا

لا أنسَينْ زمناً لديك مهذبا وظلالَ عيش كان عندك سَجْسَج (٣)
فى نِعْمَةٍ أُوطِنتُها فأقمت فى أفيائها فكأننى فى مَنْبِج

ويقول فى قصيدته فى وصف إيوان كسرى

واشترانى العراقَ خُطَّةُ غَبْنٍ بعديبى الشآم بَيْعة وَكْس (٤)

وليس أحد يعقل أن البحترى كان فى مَنْبِج فى أرفه من عيشه بالعراق ،

---

(١) وخد البعير (كوعد) أسرع . حلول جمع حال أى مقيمون . النص استخراج أقصى ماعند الدابة من السير . الذميل السير اللين (والفعل كضرب أو نصر)

(٢) الخلة : الصديق (للذكر والمؤنث والواحد والجمع) .

(٣) يوم سجسج : لا حار ولا بارد

(٤) وكس الرجل فى تجارته كأوكس (مبنيين للمجهول) لم يربح فيها

وقد اقتنى المال الكثير ، وصار يركب فى جملة من عبيده ، واتخذ قَهَارِمَة [1] وكتابا ، وخلف لأنبائه ثروة جعلتهم إلى زمن بعيد من الرؤساء والسادة المذكورين . هل يعقل أن يكون شأن البحترى فى مَنْبِج كما وصف ، وقد ذُكر أنه كان يتنقل فى أسواقها ويمدح باعة الباذنجان والبصل ؟ فهب أن انطباعه على قول الشعر جعله يتحدر من فمه ، ولكن الشرف وسمو المكانة كما يزعم كان جديرا أن يجعل موضوع شعره شيئا غير مدح البائعة ، وهل يمدحهم إلا من يطمع فى شىء من دراهمهم أو مما يبيعونه غالباً .

وإذا قيس الغائب بالشاهد حكمنا بأن عَلْوَة هذه عروس من عرائس الشعر لم يدَّعِ البحترى عشقها إلا ليصبغ خياله بلون الحقيقة ، حتى يستطرفه سامعوه . ولعل صبابته بها وتَحَرُّقه عليها كانا كصبابته بغلامه « نسيم » الذى باعه يوما فاشتراه ابرهيم بن الحسن بن سهل ، فأكثر البحترى من الأسف عليه وإظهار اللهفة والحسرة على فقده ، حتى رده إليه إشفاقا عليه . ثم باعه ، فأعاد السيرة فى الحنين إليه وهكذا . فجعل من كذب غرامه بغلامه وسيلة للحصول على المال

اتصال البحترى بأبى تمام

سمع البحترى بشاعر عظيم القدر نابه الشأن أخمل شعراء عصره وحرمهم العطاء طول مدته ، ذلك هو أبو تمام الطائى وقد كان بحِمْص ، دخلها فى جولة من جولاته التى ذَرَع بها المملكة الاسلامية شرقا وغربا فقصده ليعرض عليه شعره فى جملة الشعراء الذين جعلوا من أبى تمام حَكَما يرجعون إليه ، كما كان النابغة الذبيانى بين أهل الجاهلية . فلما سمع أبو تمام من البحترى أقبل عليه من

---

(١) القهارمة : جمع قهرمان . معرب كلمة (كهرمان) الفارسية ومعناه القائم على شئون البيت ومؤنثه قهرمانة

بين سائر من حضر واستبقاه بعد انصرافهم . فلما تفرقوا عنه فقال له : أنت أشعر من أنشدنى ، فكيف حالك ؟ فشكا إليه الخَلَّة . فكتب إلى أهل مَعَرَّةِ النُّعمان[1] (يصل كتابى هذا على يد الوليد بن عُبيدالله الطائى وهو على بذاذته[2] شاعر فأكرموه) وسلمه البطاقة وأمره أن يمدحهم فأكرموه بهذه الوصية ، و وظّفوا له أربعة آلاف درهم فكان ذلك أول مال أصابه البحترى كما يقول .

وقد ذكر صاحب الأغانى راوى هذا الحديث ، حديثا آخر فى أول اجتماع كان بين أبى تمام والبحترى . قال محدثا عن لسان البحترى :

أول ما رأيت أبا تمام أنى دخلت على أبى سَعِيد محمد بن يُوسف وقد مدحته بقصيدتى : —

أأفاق صب من هوى فأفيقا أو خان عهداً أو أطاع شفيقا

فسر بها أبو سعيد وكان فى مجلسه رجل نبيل رفيع المجلس تكاد تمس ركبته ركبة أبى سعيد . فقال يافتى : أما تستحى منى ! ! ؟ هذا شعرى وإنما تنتحله ، وتنشده بحضرتى . قال أبو سعيد أحقا ؟ قال : نعم . ثم اندفع فأنشد أكثر القصيدة ، حتى شككنى فى نفسى . فجعلت أحلف له بكل مُخْرِجة من الأيمان أن الشعر لى ما سبقنى إليه أحد ولا سمعته منه ولا انتحلته . فلم ينفع ذلك شيئا . فأطرق أبو سعيد ، وفَظِع[3] بى حتى تمنيت أنى سُخْت فى الأرض . فقمت أجر رجلىّ فما هو إلا أن بلغت الباب حتى خرج الغلمان فردونى فأقبل على الرجل (الذى ادعى أن الشعر له) فقال : الشعر لك يابنى والله ما قلته قط ولا سمعته إلا

---

(١) معرة النعمان : بلد بين حماة وحلب . والنعمان الذى أضيفت إليه هو النعمان ابن بشير اجتاز بها فدفن بها ولداً فأضيفت اليه

(٢) بذ (كعلم) بذاذة ساءت حاله . وفلان بذ الهيئة وباذها : رثها

(٣) يقال قطع بالأمر (كفرح) أى ضاق به ذرعا . والمراد أن أبا سعيد ضاق بالبحترى وصار غير مطيق له لما ظهر من انتحاله شعر أبى تمام

منك . قال ثم دعانى (هو أبو تمام) وضمنى إليه وعانقنى وأقبل يقرظنى ولزمته بعد ذلك وأخذت عنه واقتديت به

ونحن نميل إلى ترجيح الرواية الأولى فإن كل ما أحاط بها يناسب حالة التلميذ مع أستاذه ، والناشىء فى الفن مع المنتهى فيه ، فأما أن يكون البحترى قد أنشد بحضرة أبى تمام شعرا عاليا كقصيدته التى يمدح بها أبا سعيد حتى يبلغ من حسد أبى تمام له أن يدعى الشعر لنفسه ثم يقال بعد ذلك إن البحترى لزم أبا تمام وأخذ عنه فذلك ما لا يقبله عقل ولا يليق بفهم

* * *

لما نبه شأن البحترى فى الشعر وهو بِمَنْبِـج وما حولها ، تحركت همته لقصد العراق ، شأن كل نابغ فى فنه يقصد مقر الخلافة وموطن الأمراء والوزراء والقواد ، حيث المال تفيض به الخزائن وتنثر منه البِدَر[1] على المجيدين . فدخل بغداد وسُرَّ مَنْ رأى[2] ومدح الكبراء ، فلما عرف بينهم طمع أن يكون له عند الخليفة جاه . فالتمس الوسيلة إلى ذلك بمدح وزيره الفتح بن خاقان . فقال فيه شعراً وطلب الاذن عليه فأقام شهراً لا يصل إليه حتى جلس مجلساً عاماً ، فأدخل البحترى عليه فسمع منه وجعل (كما يقول البحترى) يبتسم عند كل بيت جيد قال : فعلمت أنه يعرف الشعر ، وكان ذلك أعجب من جميع ماوصانى به . وكان أول ما اهتز له قوله

وقد قلت للمُمْلِى إلى المجد طرفه ... دع المجد فالفتح بن خاقان شاغلُه

صفت مثل ما تصفو المدامُ خلاله ... ورقَّتْ كما رق النسيمُ شمائله

ثم إنه أمر له بخمسة آلاف درهم وقال له : أمير المؤمنين يخرج لصلاة الفطر ويخطب فاعمل شعراً تنشده إياه إذا رجع . ففعل البحترى ما أمره به الفتح ، ثم دخل على المتوكل فأنشده

---

(١) جمع بدرة (بالفتح) وهى كيس فيه ألف ، أو عشرة آلاف درهم ، أو سبعة آلاف دينار

(٢) مدينة بناها المعتصم وهجر بها بغداد

أبر على الأنواء نائلك الغَمْر ... وبِنْتَ بفخرٍ ما يشاكله فخرُ
وأنت (أمينَ الله) فى الموضع الذى ... أبى الله أن يسمو إلى قدره قدر
تحسنتِ الدنيا بعدلك فاغتدت ... وآفاقُها بيضٌ وأكنافها خُضْر[1]

ومنها فى ذكر سيره إلى المصلى وخطبته

وسرت بمُلْك قاهر وجلالة ... وما لك زَهْوٌ بين ذَيْنِ ولا كِبْر
عليك ثياب المصطفى ووقاره ... وأنت به أولى إذا حصحص الأمر[2]

فأمر له المتوكل بعشرة آلاف درهم

وما زال البحترى مختصاً بالفتح حتى صار صاحب شفاعته ، وما زال الفتح يكرمه حتى صيره من جلساء المتوكل

منادمة البحترى للمتوكل

بمساعى الفتح صار البحترى نديماً للمتوكل يحضر مجالسه التى يتبذّل[3] فيها لخاصته . ولعل ما كان فى البحترى من إعجاب بشعره ، وحركات شاذة فى إنشاده (وكلها يثير الضحك ويبعث على العبث به) لعل ذلك من أسباب قبوله لمنادمة المتوكل إلى جانب الشعر الذى تحتاج إليه هذه المجالس فى أجازة بيت أو وصف كأس أو رواية خبر أو غير ذلك

ذكروا أن البحترى كان من أبغض الناس إنشادا ، كان يتزاور فى مشيته ، ويهز رأسه ومَنْكِبيه ، ويشير بكمه ، ويقف عند كل بيت ويقول أحسنت

---

(١) أبر : زاد . الأنواء : جمع نوء وهو سقوط نجم وظهور آخر . وكانوا يستدلون به على المطر فأطلق وأريد به المطر نفسه تجوزاً . الغمر : الكثير . بنت تميزت . والمراد ببياض الآفاق واخضرار الأكناف كثرة الخصب ، فإن الآفاق تبيض بالسحاب المتراكم والأكناف تخضر بالزرع النابت

(٢) حصحص بان وظهر

(٣) يترك الاحتشام والتوقر

والله . ثم يقبل على السامعين فيقول : مالكم لا تقولون أحسنت ! هذا والله ما لا يحسن أحد أن يقوله . وقد فعل شيئاً من ذلك وهو ينشد المتوكل قصيدته

عن أى ثغر تبتسم وبأى طرف تحتكم

حتى بلغ قوله :

قل للخليفة جعفر الـ متوكل بن المعتصم

للمرتضَى ابنِ المجتبِي والمنعمِ ابن المنتقم

فأغرى به المتوكل أبا العَنْبَس الصَّيمرِىّ وقال له أما تسمع ياصيمرى ؟ ! ! بحياتى إلا هجوته على هذا الروى ، فقال تأمر حَمْدونَ أن يكتب ما أقول . ثم حضرت بديهة الصَّيمَرِىّ فقال قصيدة منها

والله (حِلْفةَ صادق) وبقبر أحمد والحَرَمْ

وبحق جعفرٍ الإما م بن الامام المعتصم

لأُصيِّرنَّك شُهْرة بين المَسِيل إلى العلم

حيث الطلول بذى سَلَم حيث الأراكة والخَيَم

يا بن الثقيلة والثقيـ ـل على قلوب ذوى النعم[1]

فغضب البحترى وخرج يعدو ، والمتوكل يضحك و يصفّق .

و بلغ من ملابسة البحترى للمتوكل أن أفضى إليه بما كان بينه و بين قبيحةَ جاريته ، من عتب ، وأمره أن يعمل شعرا على لسانه فقال :

تعاللتِ عن وصل المعنّى بكِ الصّب وآثرتِ دار البعد منكِ على القرب

وحملتِنى ذنب المشيب و إنه لذنبك إن أنصفتِ فى الحكم لا ذنبى

و والله ما اخترتُ السُّلُوّ على الهوى ولا حلتُ عما تعهدين من الحب

ولا ازداد إلا جِدةً وتمكُّنًا محلك من نفسى وحظك من قلبى

---

(١) المسيل ، والعلم ، وذوسلم ، والاراكة ، والخيم مواضع بجزيرة العرب . والمراد أنه يشهر أمره فى كل مكان

فلا تجمعى هَجْراً وَعَتْباً فلم أعُدْ جليداً على هجر الأحبة والعتب

فلما بلغتها الأبيات رضيت فوصله المتوكل

وكان للمتوكل غلام اسمه راح وكان حسن الوجه وكان البحترى يحبه والمتوكل يدرك ذلك . فأمر المتوكل راحا أن يملأ قدح بلور شرابا و يناوله البحترى . فلما ناوله بُهت البحتري ينظر إليه . فقال له المتوكل قل فى راح شعرا ولا تصرح باسمه فقال :

حارَ بالود فتى أمـ ـسى رهينا بك مُدْنَفْ

إسم من أهواه فى شعـ ـرىَ مقلوب مُصْحَّفْ

ودخل البحترى على المتوكل وهو جالس ببعض البِرَك والماء يسقط فيها فقال له قل فى هذا يابحترى . قال البحترى ولم أكن ذا بديهة ولكنى اعتزلت جانباً فقلت

ذات ارتجاز بحنين الرعـد مجرورةُ الذيلِ صدوق الوعدِ (١)

مسفوحةُ الدمعِ لغير وجْـدِ لها نسيمٌ كنسيم الورد

ورنّةٌ مثـل زئير الأُسـد ولمعُ برقٍ كسيوفِ الهنـد

جاءت بها ريح الصبا من نجد فانتثرت مثـل انتثار العِقـد

فراحت الأرض بعيش رغدِ من وشى أنوار الرُّبا فى بُرْد

كأنمـا غدرانها فى الوَهدِ يلعبْنَ من حبابهـا بالنرد (٢)

---

(١) الارتجاز إنشاد الرجز (وهو بحر من بحور الشعر) . والارتجاز أيضاً صوت الرعد ، ومجرورة الذيل كناية عن طول السحابة كأن لها ذيلا تجره . والمراد بصدق الوعد أن برقها ليس خلباً فهى إذا برقت أمطرت أى أنها صدقت وعدها فأزالت الجدب وحققت الخصب

(٢) الوهد المكان المطمئن . والحباب فقاقيع الماء . والنرد : اللعبة الفارسية المشهورة (الطاولة) والمراد أن الحباب يتنقل على صفحة الماء كما تتنقل قطع النرد على رقعته

فقال المتوكل انظروا ماذا فى الخزائن من ماء الورد العتيق فادفعوه إلى البحترى قال فأخذت من ذلك شيئاً كثيراً و بعته بمال .

فجيعة ووفاء

و يحدث التاريخ أن المتوكل قتل بأيدى الأتراك الذين آغراهم ابنه المنتصر حين رأى أباه يهم بخلعه من ولاية العهد و يغلظ له فى القول ، وكان الفتح بمجلسه فتصدى للدفاع عنه ، فكان نصيبه القتل ، وكان معهما البحترى فلم يقتل ولكنه وفى لسيديه وفاء عظيما و بكاهما بكاء حاراً ، ووصف شناعة قتلهما ، وغدر الغادرين بهما ، وصرح بأن الدافع إلى القتل هو ولى العهد ودعا عليه ألا يتمتع بالملك الذى خاض إليه دم أبيه فقال

أكانَ ولىُّ العهدِ أضمرَ غدرةً ومن عَجَب أن وُلىَ العهدغادره
فلا مُلِّكَ الباقى تراث الذى مضى ولا حملت ذاك الدُّعاءَ منابره

بل لقد حرض على القاتل فى قوله من هذه القصيدة

حرامٌ علىَّ الرَّاحُ من بعدكما أو أرى دماً بدم يجرى على الارض حائره
وهل أرتجى أن يطلب الدم واتر يدَ الدهر والموتورُ بالدم واترُه(٣)

وهـذا وفاء كثير ، وجرأة عظيمة من شاعر يواجه بقوله خليفة بيده موته وحياته .

و يظهر لى من كثرة تناول الشعراء لذكر هذه الحادثة أن المنتصر أدرك سوء فعله وشنيع خطته فأرخى للناس حبل القول حتى تنفد زفراتهم فى الشعر

---

(٣) يقول حرام على الخمر إلا إذا تم الأخذ بثأر المقتول فرأيت دماء تجرى فى نظير الدم الذى أهدر . ولكنى لا آمل ذلك يد الدهر (أبداً) لأن المطالب بالدم هو القاتل فكيف يثأر من نفسه

فيُنسى الحادث . ولولا أنه فعل ذلك لأُولع الناس برثاء المتوكل ووزيره وشاعت أقوالهم فيهما وربما نهض من ينتقم لهما متأثراً بما يصور الشعراء من شناعة الحادث وفظاعته .

البحترى مع المنتصر

ومن بعده من الخلفاء

عاصر البحترى بعد المتوكل خمسة من الخلفاء وهم المنتصر ابنه ثم المستعين أخوه ثم المعتز بن المتوكل ثم المهتدى بن الواثق ثم المعتمد بن المتوكل . ولكنه بعد موت المتوكل عاد إلى مَنبِج وكان يختلف إلى هؤلاء الخلفاء وغيرهم يمدحهم وقد استطاع أن يرضيهم جميعاً ، وينال جوائزهم بما ركب فيه من طبع الملق ، وبما عرف من هوى كل خليفة فكان يعمل على رضاه استدراراً لماله .

دخل على المنتصر من ناحية مدحه بالرعاية لشأن العلويين ، وقضاء حاجاتهم ، وكان المنتصر يحب أن يشتهر بميله إليهم ، ورد مظالمهم ، فوقع البحترى على رضاه حين قال فيه

رددت المظالم واسترجعت ... يداك الحقوقَ لمن قد قُهر
وآلُ أبى طالب بعد ما ... أُذيعَ بِسربهمُ فابْذَعَرّ (١)
وصلت شَوَابِك أرحامهم ... وقد أوشك الحبلُ أن ينبتر (٢)
فقربت من حظهم ما نأى ... وصفّيت من شِربهم ما كدر (٣)

---

(١) أذيع بالشيء ذهب به وانتهب . ابذعر (على وزن افعلل) تفرق
(٢) شوابك جمع شابكة والمراد بها صلة النسب
(٣) الشرب (بالكسر) الماء أو مكان وروده (المورد) . كدر (مثلثة العين) نقيض صفا

وأما المستعين فلم يفتح له أذنه أولا . ثم لما مدحه بعد قتل وزيره أتامش وكاتبه شجاع [١] أعطاه

والمعتز تقرب إليه بذم المستعين ودعوى أنه غصب الخلافة من أصحابها ، وكان المعتز يعجبه أن يسمع ذلك فى المستعين ، ولذلك لا تجد قصيدة فى مدح المعتز إلا وقد بناها على ثلب المستعين واتهامه بسوء الأثر فى الخلافة . فمن ذلك قوله من قصيدة أولها

أما الخيالُ فأنه لم يَطْرُقِ ... إلا بِعُقْبِ تشوُّفٍ وتشوُّق

ومنها فى مدحه وذم المستعين

ولقد وَليتَ فكنت خير مجمَّع ... إذ كان من ناواك شرمفرِّق [٣]

ولقد رددتَ النائباتِ ذميمةً ... وفَسَحْتَ من كَنَفِ الزمان الضيِّق

وعفوتَ عفوا عَمَّ أمة أحمد ... فى الغرب من أوطانهم والمشرق

ولقد رددت على الأنام عقولهم ... بهلاكِ سلطانِ الركيكِ الأحمق [٤]

والقوم خَرْقى ما تُطُلِّبَ رشدُهم ... وأُدِير أمرُهم بعزمة أخرق [٥]

كيف اهتداء الرَّكْب فى ظلمائهم ... ودليلهم متخلِّف لم يَلْحَق [٦]

---

(١) أتامش من القواد الأتراك اختير لوزارة المستعين وهو لا يعرف الكتابة فكان يقوم بها عنه كاتبه شجاع . وقد استبد أتامش بأمر الخلافة حتى ثار عليه القواد فقتل سنة ٢٦٠ هـ

(٢) الخيال هنا طيف المحبوبة . الطروق : المجىء ليلا . التشوف : التطلع

(٣) ناواك أصلها ناوأك والمناوأة المقاومة والمعاداة

(٤) يريد بذلك قتل أتامش

(٥) خرقى : جمع أخرق وهو الأحمق . يريد أنه إذا كان رئيس القوم ومدير أمورهم أحرق فهم مثله

(٦) ضرب هذا البيت مثالا فى معنى ما سبقه

وأما المهتدى فقد كان يتشبه بعمر بن عبد العزيز فعمل على رفع المظالم ، وأبطل الملاهى ، وأقبل على النسك ، وصوم النهار ، وقيام الليل . فمدحه البحترى بذلك فقال :

أرى حَوزَةَ الإسلام حين وَلِيتَها تُحُرِّم باغيها وحِيطَ حريمُها
تَدَاركَ مظلومُ الرعية حقَّه وخلّى لها وجهَ الطريق ظلومها

وكذلك تقرب إلى المعتمد وإن كانت التقوى ليست من صفاته . ولكن يظهر أنه كان يحب أن يذكر بها

ونكتفى من ذكر صلاته بما كان منها بالخلفاء ، فأما من عداهم فهم كثير تجد أسماءهم قد صدرت بها القصائد التى قيلت فيهم . فارجع فى ذلك إلى ديوانه.

وقد مات البحترى بداء السكتة بمنبج سنة ٢٨٤ هـ ، وقد قلنا أولا إنه ولد سنة ٢٠٦ هـ فيكون عمره ٧٨ عاماً .

وقد خلف أبناء منهم أبو الغَوْث الذى ذكره فى شعره ، وكان من أحفاده أبو عبادة بن يحيى بن الوليد وأخوه عبدالله . وقد كانا رئيسين فى زمانهما ومدحهما المتنبى .

شعر البحترى

تأثير البيئة فى شعر البحترى

ليس ينكر ما للبيئة والوراثة من أثر فى النفس . والبحترى له منهما أعظم معين على الشاعرية والتبريز فيها . فقد كانت بيئته كما تعلم مَنْبِج وهى من بلاد الشام وصفت بالحسن ، ورقة الهواء ، وعذوبة الماء وإلى جانبها حلب ، وعواصم الشام

---

(١) حوزة الشىء مجتمعه . وحوزة الملك بيضته التى يدفع عنها . خرمته المنية وتخرمته قتلته

الأخرى ، تجلو مناظرُها العين وتَشْحَذُ الذهن وتَفْسَح الخيال . والشام معروفة منذ قديم بفضلها على شعرائها ، وأنها جعلتهم أعذب الشعراء ألفاظاً وأبدعهم خيالا . حتى لقد كان الصاحب بن عباد يعجب بأشعارهم ويحرص على حفظها ، ويستملى الطارئين عليه مايحفظونه منها ، حتى ملأ دفتراً ضخماً ، فكان لايفارقه فى مجلسه ولا يملأ أحد منه عينَه غيرهُ ، وصار ماضمه هذا الدفتر على طرف لسانه وسنان قلمه ، يحاضر به فى مخاطباته ، ويورده فى مراسلاته .

وقد اجتمعت للبحترى هذه البيئة ، إلى تحدره من أصلاب عربية يُعِمُّ فيها ويخوِل . وتم له مع ذلك الاختلاف إلى قبائل طىء الضاربين على شواطئ الفرات إلى منبج ، فكان له من كل هذه الأسباب شاعرية موروثة ومكتسبة ، تم بها طبعه ، واتسع ذرعه . فبحق مايقول عنه أبو الفرج الأصبهانى

« شاعر فاضل ، فصيح ، حسن المذهب ، نقى الكلام ، مطبوع . وكان مشايخنا رحمهم الله يختمون به الشعراء »

تلمذة البحترى لأبى تمام فى الشعر

ويعترف البحترى بأنه تلميذ أبى تمام ، وأنه يحذو مذهبه ، وينحو نحوه ، ويراه أماما ، ويقدمه على نفسه . وكان إذا سئل عن نفسه وأبى تمام قال : جيده خير من جيدى ورديئى خير من رديئه .

وقال له يوما أبو العباس المبرّد ، وقد أنشد شعرا كان أبو تمام قال فى مثل موضوعه : أنت والله أشعر من أبى تمام فى هذا الشعر ، فقال : كلا والله ، إن أبا تمام للرئيسُ والأستاذ ، والله ما أكلت الخبز إلا به . فقال له المبرّد : لله درك يا أبا الحسن ، فإنك تأبى إلا شرفا من جميع نواحيك .

وقال بعضهم للبحترى : إن الناس يزعمون أنك أشعر من أبى تمام ، فقال : والله ماينفعنى هذا القول ولا يضر أبا تمام ، والله ما أكلت الخبز إلا به ؛ ولوددت

أن الأمر كما قالوا ، ولـكنى والله تابع له ، آخذٌ منه ، لائذ به ، نسيمى يركد عند هوائه ، وأرضى تنخفض عند سمائه .

والذى يثبت لك أن البحترى تلمذ لأبى تمام تلك الوصية التى حفظها عنه فى كيفية معالجة الشعر . ومنها :

« فإن أردت النسيب فاجعل اللفظ رقيقا ، والمعنى رشيقا ، وأكثر فيه من بيان الصبابة ، وتوجع الـكآبة ، وقلق الأشواق ، ولوعة الفراق . وإذا أخذت فى مدح سيد ذى أيادٍ فأشهر مناقبه ، وأظهر مناسبه ، وأبن فعاله ، وشرف مقامه ، وتقاضَ المعانى ، واحذر المجهول منها ، وإياك أن تشين شعرك بالألفاظ وكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجسام .

ثم يقول له : وجملة الحال أن تعتبر شعرك بما سلف من شعر الماضين ، فما استحسنه العلماء فاقصده ، وما تركوه فاجتنبه ، ترشد إن شاء الله »

موازنة بين البحترى وأبى تمام

و بعد فلننظر هل تأثر التلميذ أستاذَه فى طريقته وهل تبعه فى مذهبه ! و إذا كان ذلك حقا فإلى أى غاية انتهى هذا التأثر والاتباع

نعرف أن طريقة أبى تمام هى الدقة فى المعانى ، والإكثار من الاستعارات ، والألحاح فى أنواع البديع . والخروج بالجزالة إلى الغرابة ومشارفة العُنْجُهيّة ؟ فأما البحترى فقد اتبع أستاذه ولـكن فى حدود الطبع ، وانتحى مذهبه ولـكن من غير أن يخل بمقتضى السليقة . ومع أنه كان يجل أستاذه و يتمنى لو صار مثله فإن طبعه العربى السليم وسليقته الفطرية البريئة أبيا عليه أن يندفع فى تيار أستاذه ، فيكون مثله فى تعقيد المعانى وغرابة الألفاظ ، وشذوذ الاستعارات ، وكثرة التحسين بل كان منه إقبال على أنواع البديع السهلة المقبولة : من الطباق ، والمقابلة . وهما أكثر ما كان يستعمل من أنواعه . وقد يأتى بالجناس سهلا ميسوراً حسن الموقع .

فنى هذا وحده اتبع أستاذه ، فأما الاستعارات التى خرج بها أبو تمام عن مألوف قول العرب ، وأما المعانى العويصة التى تجهد الذهن فى استخراجها ، وأما الإصعاد فى حَزْن الكلام ، والتنكب لسهله ، فذلك مالم يستطع البحترى مجاراة أستاذه فيه . وما يدرينا لعله لإعجابه بأستاذه كان يتكلف فى بعض الأوقات أن يقول مثله ، فيقول ، ثم إذا عرض كلامه على ذوقه السليم وسمعه الناقد نفيا هذا الذى لا يوافق طبعه ، وكان البحترى معروفاً بأنه يلقى من شعره ما يرتاب فيه

شاعرية البحترى

ونستطيع أن نجعلك تلمس شاعرية البحترى لمساً قويا ، وأن تملأ يديك من الحكم عليه والتقدير لمذهبه فنقول

إن البحترى وإن كان قد نشأ فى عصر ازدهرت فيه العلوم ، وتعددت المعارف ، وتنافس الناس فى تحصيلها ، وحضور مجالسها ، وخاضوا فى الجدل فيها ، لقد كان البحترى بمعزل عن هذه الحركة العنيفة فإنه من أهل الشام وهذه الحركة كانت على أشدها فى العراق وبقرب قصور الخلفاء الذين حرضوا عليها ، وبعثوا فى الناس الاهتمام بها . فكان من المعقول أن تكون هذه الحركة هادئة لينة فى غير بغداد وما داناها من الأمصار ، فهى لذلك كانت هادئة فى مَنْبِج وفيما حولها من عرب يقيمون فى خيامهم وفيهم كل صفات البداوة إلا عنجهيتها لأنهم محاطون بالريف المتحضر ، مقاربون للأمصار المتمدينة .

لذلك نشأ البحترى وكل ماله من ميزة هو سليقته العربية ، وطبيعته الشعرية فقال الشعر بما فيه من فطرة لم تعقّدها العلوم ، ولم تفسدها الفلسفة ، واتخذ من أقوال الشعراء الذين حفظ كلامهم مدد معانيه ، فلم يخرج فيها عما عرف للشعراء السابقين الذين قل نصيبهم من العلم فقربت معانيهم واستقامت طريقتهم

لذلك لا تراهم يعدون البحترى فى أصحاب المعانى المخترعة ولكنهم يذكرونه

بلطف الأخذ وحسن الاتباع . ثم هو من ناحية اللفظ والأسلوب جمع بين فضيلتى البداوة والحضارة . فأما فضيلة البداوة ففى صدق التعبير وحسن الأداء ووضوح الدلالة ، وأما فضيلة الحضارة ففى رقة اللفظ وسهولة الأسلوب وحسن وقع التحسين . وهذا كل ما يقال فى الوصف العام لشعر البحترى

أغراض الشعر عند البحترى

شعر البحترى كثير ، وديوانه الذى بأيدينا ضخم لا يكاد يدانيه ديوان شاعر ممن سبقوه ، وقد تناول جميع أنواع الشعر ، ولكنه لم يكن فيها جميعها سواء ، و يستحيل أن تكون مقدرة شاعر واحدة فى جميع فنون الشعر ، ولكن الشاعر المطبوع التام الملكة يجيد فى أكثر مايقول . وهكذا كان البحترى : أجاد فى أكثر الأغراض إجادة شهد له بها فى كل غرض محل من قبول النقاد .

ونستطيع أن نقول : إنه أجاد فى كل غرض ماعدا الهجاء

المدح

فأما مدحه فأنه فيه ساحر ينفث فى العُقَد . و يكفى أن نعلم أنه على رثاثة ملبسه ، وقبح إنشاده ، وخيلائه ، وتيهه بشعره ، كان الفتح بن خاقان يقول لمن ينقم منه ذلك : والله لو رمانا بالحجارة لكان ذلك مغفوراً له فى جنب ما يقوله :

وقد علمت من حيلة البحترى أنه كان يدرس طبع الممدوح ، و يتعرف هواه حتى يقع قوله بموضع من رضاه . و يكفى فى الدلالة على فضله فى باب المدح أن يكون قد حوى هذه الثروة الطائلة التى بقيت فى عقبه ونالوا بها الرياسة والسيادة فى قومهم .

ومن مديحه قوله فى المتوكل

خلق الله جعفرا قَيِّمَ الدنـ ـيا سدادا وقيِّمَ الدين رشدا

أكرم الناس شيمةً وأتم النـــاس خلقا وأكثر الناس رِفْدا
ملك حصَّنتْ عزيمتُه الملـــك فأضحت له مُغَاثًا وَرِدْءًا[1]
أظهرَ العدلَ فاستنارَت به الأر ضُ وعمّ البلادَ غَوْرًا ونجدا[2]
وحكى القَطْرَ بل أَبَرَّ على القط ر بكفٍّ على البرية تَنْدَى[3]
هو بحر السماح والجود فازدد منه قربا تزدد من الفقر بُعْدًا
يا ثِمَال الدنيا عطاء وبذلا وجمال الدنيا سناء ومجدا[4]
وشبيه النبي خَلْقًا وخُلقا ونسيب النبي جَدًّا فجَدًّا
بك نَسْتَعْتِبُ الليالى ونَسْتَعْـــدى على دهرنا المسيء فنُعْدَى[5]
فابْقَ عُمْرَ الزمان حتى نؤدى شكر إحسانك الذى لا يُؤَدَّى

وقال يمدحه ويذكر وفد الروم

إن الرعيـة لم تزل فى سيرة عمرية مذ ساسها المتوكل
الله آثر بالخلافة جعفراً ورآه ناصره الذى لا يُخْذَلُ
هى أفضل الرتب التى جُعِلَتْ له دون البرية وهو منها أفضل
ملكٌ إذَا عاذَ المسيء بعفوه غفر الإساءةَ قادراً لا يَعْجَلُ[6]

---

(١) المغاث : اسم مكان من أغاث . أى صارت عزيمته ملجأ للملك وكنفاً يغيثه ويحميه ، الرد : عماد الشيء

(٢) الغور : المكان الغائر المنخفض . والنجد : المكان المرتفع

(٣) القطر : المطر . أبر عليه : زاد عليه وفاقه . نديت كفه : جاد

(٤) الثمال : الغياث وزناً ومعنى . السناء : الشرف (وردت هذه الكلمة فى الديوان بالثاء (الثناء) ولكنى أرجح أن تكون بالسين ليتم التقسيم . ويفخم المعنى

(٥) استعتب طلب الإعتاب (الارضاء) . استعدى عليه . استعان . أعداه عليه يعديه أعانه ونصره عليه

(٦) عاذ به لجأ إليه . ومعنى لايعجل أى لا يعجل بالعقوبة

وعفا كما صفح السحاب ورعده قصف وبارقه حريق مشعل (١)

يتقيل العباسَ عم محمد ووصيَّه فيما يقول ويفعل (٢)

شرف خُصصتَ به ومجد باذخ متمكن فوق النجوم مؤثل

لا يعدمنك المسلمون فإنهم في ظل ملكك أدركوا ما أملوا

حصّنت بيضتهم وحطت حريمهم وحميت من أعبائهم ما استثقلوا

فاديت بالأسرى وقد غَلِقوا فلا مَنٌّ ينال ولا فداء يقبل (٣)

ورأيتُ وفد الروم بعد عنادهم عرفوا فضائلك التي لا تجهل

لحظوك أول لحظة فاستصغروا من كان يعظم فيهم ويبجل

أحضرتَهم حججاً لو اجتُلبت بها عُصْم الجبال لأقبلت تتنزل (٤)

ورأوك وضاح الجبين كما يُرى قمر السماء السعدُ ليلة يكمل

نظروا إليك فقدسوا ولو أنهم نطقوا الفصيح لكبروا وهللوا (٥)

---

(١) صفح : سقى . رعد قاصف وقصف شديد الصوت . يقول إن هذا الممدوح يعفو عن المذنب اذا لجأ إليه فينقلب حقده عليه عطفا وشدته رحمة ويكون كالغيث ينال الناس منه الخصب والنفع بعد أن كان رعده قاصفا وبرقه نارا

(٢) التقيل : التتبع . يقال فلان يتقيل أباه أى يسير على نهجه

(٣) علق الرهن فى يد المرتهن اذا لم يستطع الراهن دفع ما عليه وفك الرهن . المن : إطلاق الأسير من غير فدية . والمعنى : إنك بجاهك ومهابتك فى نظر الأعداء استطعت أن تستخلص أسرى المسلمين من يد الأعداء بعد أن كانوا تحت يدهم لا يقبلون فيهم فدية ولا يمنون عليهم بالخلاص

(٤) العصم : جمع أعصم وهو من الطير والوحش ما يلجأ إلى أعالى الجبال فلا ينال إلا بالحيلة القوية فيضرب المثل بالقدرة على استنزاله من أماكنه . فيقال فلان يستنزل العصم بكلامه أى أنه مؤثر

(٥) التقديس التطهير وتنزيه الله . وهو فى اصطلاح النصارى من أنواع عبادتهم. التهليل قول لا إله إلا الله .

حضروا السِّماط فكلما راموا القِرَى مالت بأيديهم عقول ذُهَّل (١)
تهوِى أكفُّهُمُ إلى أفواههم فتحِيدُ عَن قَصْد السبيل وتَعْدِلُ
متحيرون فباهتٌ متعجبٌ مما رأى أو ناظر متأمل
ويود قومُهُمُ الأولى بعثوا بهم لو ضمهم بالأمس ذاك المَحْفِل
قد نافس الغيبُ الحضورَ على الذى شهدوا وقد حسد الرسولَ المرسلُ
عجَّلْتَ رِفدهم فأفضلُ نائل حُبِىَ الوفودُ به الهنىء المُعْجَلُ (٢)
فالله أَسْأَلُ أنه تُعَمِّرَ صالحا فدوام عمرك خيرُ شىء يُسْأل (٣)

الغزل

أما الغزل فى شعره فهو أظهر محاسنه حتى لقد ضرب المثل بغزل البحترى. ولعلنا إذا التمسنا وجه إبداعه فى هذا الباب نجد ما نقوله من أنه نشأ نشأة بدوية، صفت فيها السماء واتسع الأفق وسنحت الظباء وتراءت له فتيات الحى فى خصورهن الهيف وقدودهن الميادة، وعيونهن النُّجْل، كما رأى فى الحضر الذى تنقل فيه علوة الحلبية وقد شَغَفَ فؤادَه حبُّها (٤) فلم ينسها بعدُ بالعراق فى عاصمة تُذْهِل مناظرها كل قلب، وتسلب كل لب.

وكان له إلى جانب هذه النشأة ماعرفت من طبع فياض، وسهولة تكاد تسيل. فكان من غزله ماقيد الأسماع، وخالط النفوس فبكى الناس للوعته، ورَثَوْا

---

(١) السماط. المائدة. ذهل جمع ذاهل بمعنى غافل
(٢) الرفد: العطاء. حباه: أعطاه
(٣) يقال عمره الله أى أطال عمره ولذلك يقال للطويل العمر معمر (بصيغة اسم المفعول)
(٤) استولى عليه وغشاه

لدائم عبرته ، ومتصاعد زفرته . أما هو فقد اشتاق والتَاع [١] ، وذكر اللقاء والوداع ، وارتاح لِطَيْف الخيال ، وأنحى باللوم على العُذَّال ، ووصف القدود ، وأسيل الخدود [٢] . ليس له فى المعنى من فضل إلا أنه قرب بعيده ، وذلل رَيِّضه [٣] . ثم صبه فى قالبه السحرى من اللفظ الناصع السهل ، مبدعا ماشاء فى الصوغ ، مُحَلِّيا بما هداه إليه الطبعُ ، ويأبى طبعه إلا الإحسان والخلو من الشوائب .

ومن سهولة الغزل عليه وموافقته لطبعه تراه قد أكثر منه والتزمه فى بدء قصائده جريا على طريقة العرب فى بناء القصيد على الغزل

ولرقة غزله وحسن مذهبه فيه يصعب على المتخير أن يختار منه ، لأن الاختيار أثر المفاضلة ، وليس فى غزله فاضل ولا مفضول بل كل قطعة منه دُمْيَةٌ فنية غنية بمحاسنها ، لا تزاحمها غيرها فى جمالها ولا تَبْزُّهَا بداعتها

فانظر إليه خُضريا فى شَملة أعرابى ، يتغزل على طريقة السابقين فيذكر الآرام ، ورَمْل عالج ، والغَوْر من تهامة ، فى قوله

شُغْلَانِ مِنْ عذَل ومن تَفْنيد ورَسيس حبٍ طارف وتليد [٤]

وأَمَا وآرَام الظباء لقد نأتْ بهواك آرامُ الظباءِ الغِيدِ [٥]

---

(١) احترق قلبه من ألم الحب

(٢) الأسيل من الخدود السهل الذى لم تبرز وجناته

(٣) الصعب من الدواب الذى لم يذلل بعد

(٤) أى عنده أمران يشغلانه أولهما اللوم على الحب والثانى تباريح ذلك الحب وآلامه . الرسيس الشىء الثابت

(٥) الآرام : جمع رئم وهو الظبى الخالص البياض . الغيد : جمع أغيد أو غيداء وهو المائل العنق اللين الأعطاف . يقسم بحق الظباء أن الجميلات الشبيهات بها قد هجرنه بعد أن علق هواها بقلبه

طالعْنَ غَوْراً من تهامة واعتلى عنهن رَمْلا عالجٍ وزَرُودِ (١)
لما مشَيْنَ بذى الأراك تشابهتْ أعطافُ قضبانٍ به وقُدُودِ (٢)
فى حُلَّتَىْ حِبَرٍ ورَوْضٍ فالتقى وشيان وشىُ رُبًا وَوَشْىُ بُرُودِ (٣)
وسفَرْنَ فامتلأتْ عيون راقها ووَرْدَانِ وَرْدُ جنًى وَوَرْدُ خدودِ (٤)
وضحكنَ فاغترف الأقاحِى من ندًى غضٍ وسلسالِ الرُّضابِ بَرُودِ (٥)
ترجو مقاربة الحبيب ودونه وَخْدٌ يُبَرِّحُ بالمهارَى القُودِ (٦)
ومتى يساعدنا الوصال ؟ ودهرنا يومان يومُ نوىً ويومُ صدودِ

* * *

وانظر إليه وقد اختار الأوزان القصيرة التى توافق خفة الغزل ونشوة الحب ثم هو يتلاعب بالمعانى فيطالب المحبوب بالرقة ، وفاء لذل العاشق ، ويستحلفه بالوصل بعد الهجرة ، والقرب بعد البعد وهو لاشك عند المحب خير مافى الدنيا . فيقول

لم لا تَرِقُّ لذلِّ عبدِك وخضوعِهِ فتفى بوعدِك

---

(١) طالع المكان دنا منه ورآه . الغور ، ورمل عالج ، ورمل وزرود ، أمكنة فى بلاد العرب

(٢) يريد أن قدود هؤلاء الجميلات تشبه أغصان شجر الأراك . وذو الأراك موضع

(٣) الحبر : جمع حبرة كعنبة وشجرة وهى ضرب من برود اليمن . الوشى : زينة الثوب . يقول إنهن ظهرن بملابسهن الجميلة فى الروض فاجتمع وشى الربا ووشى الثياب

(٤) سفرن : كشفن وجوههن

(٥) الاقحوان نبت تشبه به الاسنان . الرضاب : الريق . البرود : البارد . ويقول لما ضحكن ظهرت أسنانهن كالاقحوان وقد امتلأ من الندى . فهو يجعل الاسنان كالاقحوان والريق كالندى

(٦) الوخد : الإسراع . التبريح : الإيلام . المهارى : جمع مهرية وهى الناقة الكريمة نسبت إلى بنى مهرة وقد عرفوا بكرم إبلهم . القود : جمع أقود وهو الذلول من الإبل . يقول عن نفسه إننى أرغب فى لقاء المحبوبة ولكن دون ذلك مسافات بعيدة

إنّى لَأسألك القلي لَ وأتّقِي من سوءِ ردِّك
وأمَا ووصلك بعد هج رك واقترابك بعدَ بُعدك
لا لُمْتُ نفسى فى هوا ك ولا انحرفت لطول صدك
وإن أسأتُ كما تسى ء لما وَدَدْتُكَ حق ودك

وانظر إليه ولم يأت بجديد من معانى الغزل ، ولكنه يكاد بلفظه الرشيق وأسلوبه الخلاّب يريك كأنه يتغزل بما لم يقله أحد قبله ، وما فى شعره لو فتشته إلا تشبيه القدّ بالقضيب ، والأسنان بالبرد ، وإلا كون المحبوب قد استولى على الحسن وتفرد بالدلال ، وأن الذرع قد ضاق بالحب ، فصار مخرجه من الحب عسيرا قال.

مُخْلِفٌ فى الذى وَعَدْ سِيلَ وصْلاً فلم يَجُدْ (١)
وهو بالحسن مستبدّ وبالدَّل منفردْ
يتثنَّى على قضيـ ب ويفترُّ عن بَرَدْ (٢)
قد تَطَلَّبْتُ مخرجا من هواه فلم أَجِدْ
ضاق صدرى بما أَجَـــنَّ وقلبى بما وَجَدْ (٣)
وتغضَّبْتَ أنْ شكوْ تُ جَوَى الحبِّ وَالكَمدْ

ومن غزله فى عَلْوَة قوله من قصيدة يمدح بها المعتز بالله

خيال يعترينى فى المنام لِسَكْرَى اللحظِ فاتنةِ القوَام
لعَلْوَةَ إنّها شَجَنٌ لنفسى وَبَلْبَال لقلبى المستهام (٤)

---

(١) سيل فعل ماض مبنى للمجهول من سأل الذى سهل فقلبت همزته ألفا فعومل معاملة الأجوف عند البناء للمجهول

(٢) البرد حب الثلج . يريد أن يقول إن قوامه كالغصن وأسنانه كحب الثلج

(٣) أجن : حوى وستر

(٤) يقول له : إنك غضبت لشكواى من حبك . وإنى أعترف بأنى أذنبت فاعف عنى هذه المرة فإنى لا أعود إلى هذه الجناية

إذا سَفَرَتْ رَأَيْتَ الظَّرْفَ بحتا ونارَ الحسنِ ساطعة الضرام
تَظنُّ البَرْقَ مُعترضاً إذا ما جلا عنْ ثَغْرِهَا حسنُ ابتسام
كنورِ الأُقْحُوَانِ جلاه طَلٌّ وسِمْطِ الدُّرِّ فُصِّلَ بالنظام (١)
سلامُ اللهِ كلَّ صباح يوم عليك . ومن يبلِّغُ لى سلامى ؟
لقد غادرتِ فى قلبى سَقَاما بما فى مقلتيك من السهام
وذَكَّرَنِيكِ حُسْنُ الْوِرْدِ لمَّا أتى ولذيذ مشروبِ المدَام
لئن قَلَّ التواصل أو تمادَى بنا الهِجْرَانُ عاما بعد عام
فكم من نظرةٍ لى من بعيد إليك وزورةٍ لك فى اكتتام
أتتخذ العراق هوًى ودارا ومن أهواه فى أرض الشآم

ومن قوله فى غلامه نسيم :

أنسيمُ هَلْ للدهر وعد صادق فيما يُؤَمِّلُهُ المحب الوامق
مالى فقدتك فى المنام ولم يزل عَوْنَ المَشُوق إذا جفاه الشائق (٢)
ومُنِعْتَ أنت من الزيارة رِقبةً منهم فهل منع الخيال الطارق
اليوم جاز بى الهوى مقدارَه فى أهله وعلمتُ أنّى عاشق
فليُهنِىء الحسنَ بن وهب أنه يلقى أحبته ، ونحن نفارق (٣)

---

(٣) الشجن : الهم والحزن وكذلك البلبال . المستهام : الذى ذهب عقله من الحب
(٤) السمط : العقد . النظام : الخيط ينظم فيه اللؤلؤ ونحوه . التفصيل : نظم العقد والتفريق بين حباته بأخرى . والتشبيه ظاهر
(٥) المشوق : المحب : الشائق : المحبوب يقول امتنعت رؤيتى لك فى النوم وما زالت هذه الرؤية مما يخفف عن المحب آلام حبه

ومن قوله أيضاً

دعا عبرتى تجرى على الجوْرِ والقصد ... أظن نسيما قارف الهجر من بعدى[1]

خلا ناظرى من طَيْفه بعد شخصه ... فياعجبًا للدهر فقدا على فقد

خليلى هل من نظرة توصلانها ... إلى وجناتٍ ينتسبن إلى الورد

وقدٍّ يكاد القلب يَنْقدُّ دونه ... إذا اهتز فى قرب من العين أو بعد[2]

كفى حزناً أنّا على الوصل نلتقى ... فُوَاقاً فتثنينا العيون إلى الصد[3]

فلو تُمْكِنِ الشكوى لخبَّرك البكا ... حقيقة ما عندى و إن جلَّ ما عندى

وذكر صاحب الأغانى أن نسيما هذا كان غلاماً رومياً ليس بحسن الوجه وكان البحترى قد جعله باباً من أبواب الحيل على الناس ، فكان يبيعه ، و يتعمد أن يصيره إلى مِلك بعض أهل المروءات ، ومن ينفق عنده الأدب ، فإذا حصل فى ملكه نسب به ، وتشوقه ومدح مولاه حتى يهبه له ، فلم يزل ذلك دأبه حتى مات نسيم فكفى الناس أمره

الوصف

والوصف فى شعر البحترى باب بارع الجمال دقيق الصنعة ، اشتهر به البحترى شهرته بالغزل والمدح ، حتى قال فيه ابن المعتز : لو لم يكن للبحترى إلا قصيدته فى

---

(١) الجور : الظلم . القصد : الاعتدال . قارف : دانى وقارب . يقول لصاحبيه أتركا دموعى تجرى بإسراف أو اعتدال فإن نسيما قد جفانى وانتهى إلى الهجران لى بعد فراقى

(٢) القد : القوام . ينقد : ينقطع

(٣) الفواق : ما بين الحلبتين من الوقت . أوهو ما بين فتح يدك وقبضها عند الحلب . وهذا المعنى الأخير يناسب المبالغة فى قصر مدة التقائهما . والمراد بالعيون عيون الرقباء . والمعنى ظاهر

إيوان كسرى (فليس للعرب سينية مثلها) وقصيدته فى وصف بركة المتوكل ، لكان أشعر الناس . و يعده صاحب العمدة أحد الشعراء الذين أجادوا فى جميع الأوصاف و إن غلبت على أحدهم الإجادة فى بعضها ، كامرىء القيس ، وأبى نواس ، والبحترى ، وابن الرومى ، وابن المعتز ، وكُشاجم . والذى يغلب على البحترى وصف القصور ومايحيط بها :

ولا شك أن قصيدته فى وصف إيوان كسرى هى عروس شعره عامة ، ونموذج إجادته فى الوصف خاصة ، وليس العجيب عندى أنه وصف القصر ولكن العجب أنه اتجه اتجاها لم يتجهه غيره من الشعراء فى العناية بدلائل العظمة للأمم السابقة ، والإشادة بما خلفوه من جهود تنطق بسمو مكانتهم ، وعلو كعبهم ، وكثير من الشعراء قد عاشوا بمصر أو مروا بها فمارأيناهم ذكروا الأهرام ولاعاديات القدماء إلا ذكراً لايدل على فضل تأثر بها و إعجاب بأصحابها

أما البحترى فقد وفى للفرس أتم وفاء ، ورثى لمجدهم أحر رثاء ، وعاتب الدهر على سوء أثره فيهم وقبح فعله بهم . وفى اعتقادنا أن البحترى فتح للشعراء باباً لم يستطيعوا ولوجه من بعده فظل مهجوراً ، حتى أشادت المدنية الحديثة بذكر الآثار وأنطقتها بعظمة أصحابها . فكان من الشعراء العظماء المرحومين : محمود سامى البارودى ، واسماعيل صبرى باشا . وأحمد شوقى بك أن اقتفوا أثر البحترى فى نهجه بعد ألف عام ، وتنبهوا إلى هذه المنقبة التى لم يخلق الشعر إلا لمثلها ، ولم يشرف إلا بمثل موضوعها .

و إذا قلت إن وصف الديار و بكاء أهلها عادة عربية قديمة فاعلم أنه لم يتوسع أحد فيها توسع البحترى ، فيخرج بحديثها من الغزل ومجرد اللهو إلى جد الحقيقة والوفاء للتاريخ . والعجب أن تنال سينية البحترى هذه الشهرة ثم لايكون من الشعراء اتجاه إلى موضوعها وتقليد له فى منحاها . ولكن الذى صدهم عن ذلك أن موضوعها خالص للحقيقة ليس فيه زلفى لرئيس ، ولا وراءه مطمع

فى عطاء . فهذا هو الذى أمات موضوعها فى نظر الشعراء فلم يجروا وراء البحترى فى شوطه الذى تفرد بالسبق فيه .

واقد سبق قول ابن المعتز (ليس للعرب سينية مثلها) وما كان أحراه أن يقول : « ليس للعرب قصيدة مثلها » حتى لا يوهم قوله ، أن لنوع القافية أثرا فى التفرد بالحسن .

وليس يقل عن السينية فى تحدير العبرة ، ووصف النعيم الزائل ، والتفجع للجمال الحائل ، وصفه لقصر المتوكل بعد قتله وما أصابه من تهتيك الستور وتشريد الأطلاء والجآذر .

أما أوصافه التى لا شجو فيها ولا رثاء ، فمنها وصفه لبركة المتوكل ، وقصر المعتز وسنذكر طرفاً من كل ذلك .

فمن وصف سينيته قوله فى وصف القصر الأبيض : (١)

لو تراه علمت أن الليالى جعلت فيه مأتماً بعد عرس
وهو ينبيك عن عجائب قوم لا يُشاب البيان فيهم بلَبس
فاذا ما رأيت صورة أنطا كيَّة ارتعت بين روم وفرس (٢)
والمنايا موائل وأنو شِرْ وانُ يُزجى الصفوف تحت الدِّرَفْس (٣)
فى اخضرار من اللباس على أصـ فر يختال فى صبيغة وَرْس (٤)

---

(١) ويسمى أبيض المدائن وهو الذى بناه بعض الأوائل من الساسانيين فى شمال « المدائن » ، وقد عفا أثره فى عهد الخليفة العباسى المكتفى بالله فقد هدمه سنة ٢٩٠ هـ وبنى بأنقاضه قصر التاج .

(٢) ارتعت : خفت

(٣) أنوشروان أحد ملوك الفرس . يزجى : يسوق . الدرفس : العلم الكبير

(٤) الورس : نبات ذو صبغة حمراء . والمراد بالأصفر أنوشروان يعنى أنه يلبس ثوبا أحمر فوقه آخر أخضر

وعِرَاكُ الرجال بين يديه ... فى خُفُوتٍ منهم وإغماض جَرْس (١)

من مُشيحٍ يهْوِى بعامل رمح ... ومُليح من السنان بترس (٢)

تَصِفُ العينُ أنهمْ جِدُّ أحْيَا ... ءٍ لهم بينهم إشارةُ خُرْسِ

يَغْتَلِى فيهمُ ارتيابِىَ حتى ... تتقرَّاهُمُ يدَاىَ بِلَمْسِ (٣)

ومنها وصف إيوان كسرى وهو على مقربة من القصر الأبيض فى جنوبيه وكان مجلس الملك للحكم :

وكأن الإيوان من عجب الصنـ ... ـعة جَوْبٌ فى جَنْب أرْعَنَ جَلْسِ (٤)

يُتَظَنَّى من الكآبة إن يَبْـ ... ـدُ لعينى مُصَبِّحٍ أو مُمَسِّى (٥)

مُزْعَجًا بالفِرَاق عنْ أُنس إلْفِ ... عَزَّ أو مُرْهَقًا بتطليق عِرْس (٦)

عكست حظه الليالى وبات الـ ... ـمُشْتَرِى فيه وهو كوكب نَحْس (٧)

---

(١) الخفوت : سكون الصوت : الجرس الصوت

(٢) المشيح . المقبل . المليح : المحاذر الترس : مابه تتقى الضربات فى الحرب ، عامل الرمح : مقدمه .

(٣) يغتلى يزداد . ارتياب : شك . تتقرى : تتبع . يصف فى هذا البيت وما تقدمه فى الستة قبله مارسم على حائط القصر من صورة وقعة كانت بين الروم والفرس بانطاكية

(٤) الجوب : الخرق . الأرعن : الجبل له أنف يتقدمه . الجلس : الجبل العالى يقول كان الايوان بالنسبة الى القصر الأبيض خرق فى الجبل

(٥) يتظنى : يظن

(٦) العرس بالكسر امرأة الرجل والمعنى فى هذا البيت والذى قبله : اذا رآه انسان صباحا أو مساء ظنه من الكآبة البادية عليه كأنه محب فارق حبيبا عزيزا أو بعلا كلف فراق زوجه .

(٧) المشترى معدود عند علماء النجوم من كواكب السعد ولكن سوء حظ هذا الايوان عكس الحقائق الثابتة فصار المشترى اذا مر بالايوان ينقلب وصفه فيصير كوكب نحس

فهُوَ يُبْدِى تَجَلُّدًا وعليه كَلْكَلٌ من كلاكل الدهر مُرْسِى (١)

لم يَعِبْهُ إنْ بُزَّ من بُسُطِ الدِّيـ ـباجِ واسْتُلَّ من سُتُور الدِّمَقْس (٢)

مُشْمَخِرٌّ تعلو له شُرُفات رُفِعَتْ فِى رءوس رَضْوَى وقُدْس (٣)

ليس يُدْرَى أَصُنْعُ إنسٍ لجن سكنوه أم صُنعُ جنٍّ لإنس

ومن قوله فى وصف قصر المتوكل بعد قتله

تَغَيَّرَ حُسْنُ الجعفَرِىِّ وَأُنسُهُ وقُوِّضَ بادِى الجعفرىِّ وحاضرُه (٤)

تحمل عنه ساكنوه فجاءةً فعادت سواءً دورُه ومقابرُه (٥)

إذا نحنُ زُرْناه أَجَدَّ لنا الأسى وقد كان قبل اليوم يَبْهَجُ زائره (٦)

ولم أنسَ وحشَ القصر إذ ريع سِرْبُه وإذْ ذُعِرَتْ أطلاؤه وجآذرُه (٧)

---

(١) الكلكل من الجمل : مجتمع رقبته بصدره وهو يلتصق بالأرض عند بروك الجمل ، يقول إن الايوان لا يزال متماسكا قائما مع ما فعلت به صروف الليالى .

(٢) بز : سلب . استل : انتزع . الديباج : الثوب سداه ولحمته حرير

(٣) مشمخر : مرتفع الشرفات . الشرفة : ما أشرف من البناء . رضوى وقدس : جبلان . يقول إن الايوان عال كهذين الجبلين

(٤) الجعفرى : قصر المتوكل . قوض : تهدم ، والمراد بالبادى والحاضر جميع نواحيه كما يقال طاف فلان الدنيا باديتها وحاضرتها أى جميع نواحيها أو كأنه لا تساعه كانت فيه نواح آهلة ونواح خالية فجعل الآهلة حاضرة والخالية بادية

(٥) كان قصر المتوكل هذا بناحية كثر فيها بناء الناس حول قصر الخليفة فكان ككل المدن له بجانبه مقابر فلما خرب القصر أخليت المدينة فاستوت دورها ومقابرها فى الخلو من الأحياء

(٦) أجد : جد . الأسى : الحزن . بهج (كخجل) : فرح . و(كمنع) أفرح

(٧) الاطلاء : جمع طلا وهو ولد الظبية ساعة يولد . الجآذر : جمع جؤذر وهو ولد البقرة الوحشية . ذعر : ريع وأخيف . والمراد بوحش القصر نساؤه . السرب : الجماعة من الحيوان أو الانسان

وإذ صيحَ فيه بالرحيلُ هُتِّكَتْ على عَجَلٍ أستازه وسرائرُه (١)
ووحْشَتَهُ حتى كأنَّ لم يَقُمْ به أنيسٌ ولم تَحْسُنْ لعينٍ مناظِرُه
كأنْ لم تَبِتْ فيه الخلافةُ طَلْقَةً بشَاشَتُهَا والملكُ يشرقُ زَاهِرُه (٢)
ولم تجمعِ الدُّنيا إليه بهاءها وبهجتَهَا والعيشُ غضٌّ مكاسرُه (٣)
فأينَ الحجابُ الصَّعْبُ حينَ تمنَّعَتْ بهيْبَتِهِ أبْوَابُهُ ومَقاصرُه
وأينَ عميدُ الناس فى كلِّ نَوْبَةٍ تنُوبُ وناهى الدَّهرِ فينا وآمرُه

ومن وصف بركة المتوكل قوله

يامن رأى البركةَ الحسناءَ رؤيتُهَا والآنساتِ إذا لاحَتْ مغانيها (٤)
بحسْبها أنها منْ فضل رُتبتها تُعَدُّ واحدةً والبحرُ ثانيها (٥)
ما بالُ دِجْلة كالغيرَى تنافسها فى الحسن طَوراً وأطواراً تباهيها (٦)
أما رأت كالىء الاسلام يكلؤها من أن تعابَ وبانى المجدِ يبنيها (٧)

---

(١) المراد بتهتيك الأستار إزالة مافى القصر من فرش وستائر وبتهتيك السرائر ظهور مخبآت القصر . والبيت يروى فى كل مصادره « أستاره وستائره » ولا معنى للعطف لكونهما بمعنى واحد فلا بد أنه محرف عما ذكرنا

(٢) الطلق : الضاحك . الزاهر : المشرق الحسن

(٣) الغض : الطرى . المكاسر : جمع مكسر (كمجلس) وهو موضع الكسر والمعنى فى كون العيش غض المكاسر أنه لين لا شدة فيه

(٤) الآنسات : جمع آنسة بمعنى مؤنسة . المغانى : جمع مغنى وهو المنزل والمسكن . يقول : قد رأى هذه البركة الحسنة المنظر التى ترى حولها المنازل تألفها النفس وتطمئن لها لجمالها وحسن موقعها

(٥) بحسبها أى حسبها أى يكفيها

(٦) دجلة . النهر الذى تقع عليه بغداد وتستمد منه هذه البركة

(٧) كلأه (كمنع) صانه ورعاه . والمراد بكالىء الاسلام الخليفة المتوكل الممدوح بهذه القصيدة

كأنّ جِنّ سليمانَ الذين وَلُوا إبداعها فأدَقُّوا فى معانيها (١)
فلو تمرُّ بها بِلْقِيسُ عن عُرُض قالت هى الصَّرْح تمثيلا وتشبيها (٢)
تنصبُّ فيها وُفود الماء مُعجَلةً كالخيل خارجة من حبل مُجريها
كأنما الفضة البيضاء سائلةً من السبائك تجرى فى مجاريها
إذا علتها الصَّبا أبدت لها حبكا مثل الجواشن مصقولا حواشيها (٣)
فحاجب الشمس أحياناً يضاحكها وريِّق الغيث أحياناً يباكيها (٤)
إذا النجوم تراءت فى جوانبها ليلا حسبت سماء ركبت فيها (٥)
لا يبلغ السمك المحصور غايتها لبعد ما بين قاصيها ودانيها

وليس إلى هذه الأمثلة ينتهى الحسن فى أوصاف البحترى ، بل إن إجادته فى هذا الباب لا يشبع منها إلا مراجعة ديوانه فهو الكفيل بذلك

---

(١) ولى الأمر : قام به

(٢) بلقيس ملكة سبأ . الصرح هو فى الأصل البناء العالى . والمراد هنا الصرح الذى بناه سيدنا سليمان لبلقيس فلما رأته حسبته لجة ، وكشفت عن ساقيها فقال لها إنه صرح ممرد من قوارير

(٣) الصبا : الريح الشرقية . الحبك : جمع حباك ككتاب وهو التجعد يكون فى الرمل أو الشعر أو الماء إذا مرت عليه الريح . الجواشن : جمع جوشن وهو الدرع . الحواشى : جمع حاشية . وهى طرف الثوب والمعنى إذا مرت الريح على صفحة هذه البركة أحدثت فيها تجعدات كأنها نسيج الدرع

(٤) حاجب الشمس : ضوءها . ريق الغيث أوله ، يقول مرة تعكس أشعة الشمس الساقطة عليها فكأنما هما ضاحكان تبدو أسنانهما البيضاء . ومرة ينزل عليها المطر فيجتمع ماؤهما كأنما يبكيان معاً . ويصح أن يكون الضحك والبكاء من الشمس والمطر وحدهما فيكون المعنى أن الشمس تكشف لها عن شعاعها كما يكشف المبتسم عن ثغره وكذلك المطر يسقط عليها قطراته كما تتساقط دموع الباكى

(٥) يقول أنها لصفائها تنطبع فيها صورة السماء فتظن أن السماء نفسها قد ركبت فى موضع البركة لشدة الشبه بين الصورة وأصلها

الهجاء

ولا يفوتنا أن نذكر تقصيره فى الهجاء وسوء معانيه وقبح ألفاظه فيه . ولعل هذا هو السبب فى تقدمه إلى ابنه أبى الغوث فى آخر أيام حياته أن يحرق شعره فى الهجاء قائلا له : « يابنى هذا شىء قلته فى وقت فشفيت به غيظى وكافأت به قبيحاً فعل بى وقد انقضى أربى من ذلك ، وإن بقى روى وللناس أعقاب يورثونهم العداوة والمودة وأخشى أن يعود عليك من هذا شىء فى نفسك ومعاشك ولا فائدة لك ولا لى فيه » . وهذا قول ابنه أبى الغوث . ولعله اعتذار منه عن تقصير أبيه فى هذا الباب ، وإلا فقد بقى من هجاء البحترى كثير فى ديوانه وكله ليس من شاكلة كلام البحترى فى لفظه ومعناه ، بل الإسفاف فيه كثير واللفظ الفاحش شائع ، ومن ذلك قوله يهجو على بن يحيى

وأكثرتُ غِشيانَ المقابر زائراً ... على بن يحيى جارَ تلك المقابر
فإلا يكن ميتَ الحُشاشة فى الذى ... يُرَى فهو ميتُ الجود ميتُ المآثر (١)
ولا فضل عند الأرْمَنىّ يعدُّه ... سوى أنه ثور سمين لجازر
سرقتَ سهام المسلمين ولم تكن ... لهم يوم زَحف المشركين بحاضر (٢)

هذه هى أهم الأغراض التى أجاد فيها البحترى

وليس إجمالنا للقول فى بقية الأغراض بدليل على عدم فوقه فيها بل إننا نكتفى ببعض محاسن الرجل للدلالة على شاعريته المتفردة

آثار البحترى وما قيل فيه

للبحترى ديوانه المشهور الذى جمعه أبو بكر الصولى ورتبه على حروف المعجم

---

(١) الحشاشة : الروح . الميت كبيت الذى مات فعلا بخلاف الميت (كسيد) فانه الذى من شأنه أن يموت وإن لم يمت فعلا قال تعالى : أو من كان ميتاً فأحييناه وقال . إنك ميت وإنهم ميتون خطابا للرسول والمؤمنين فى حال حياتهم

(٢) يقول . إنك تأخذ من مال الدولة مالا تستحقه لأنك تشارك المجاهدين فى الفىء و لم تحضر حرباً

كما رتبه على بن حمزة الأصبهانى على الأنواع ، ويظهر أن الطبعة التى بأيدينا (طبعة الجوائب بالأستانة سنة ١٣٠٠ هـ) ليست جمع الصولى ولا الأصبهانى لأنها غير مرتبة على ترتيبهما ولا على ترتيب الزمن ولا جمع فيها كل ماقيل فى شخص على حدة ، بل شعر البحترى فيها مهوش أيما تهويش تصعب مراجعته جداً

وقد شرحه محمد على بن اسحاق الزوزنى المتوفى سنة ٤٦٣ وقد ذكر ياقوت الحموى أنه شرح ملىء علماً وحشى فهما (وهـذا الشرح لم نره فى فهارس دار الكتب المصرية ولا يعرف بإحدى المكاتب العامة) .

ولأبى العلاء المعرى كتاب « عبث الوليد » وهو محفوظ بدار الكتب المصرية وليس شرحاً مستوفياً لجميع شعره بل إنه قد يذكر من القصيدة بيتاً أو بيتين ويعلق عليهما بتصويب أو تخطئة فهو أشبه بالنقد منه بالشرح

وللبحترى غير الديوان ، حماسة كحماسة أبى تمام ولكنه أكثر فيها من الأبواب إذ جعلها أربعة وسبعين ومائة باب وهى أبواب جزئية كأن يقول « ما قيل فى حمل النفس على المكروه » و « ما قيل فى الفتك » و « ما قيل فى مجاملة الأعداء » وهكذا ، أما حماسة أبى تمام فأبوابها عامة إذ هى أبواب الحماسة والمراثى والأدب والنسيب والهجاء والاضياف والصفات والسير والملح ومذمة النساء فجملتها عشرة . وقد طبعت حماسة البحترى فى مصر والشام

وذكروا أن له كتابا يسمى « معانى الشعر » وهو غير موجود ولا موصوف ما يحتويه

وكان البحترى أحد الشعراء الذين رزقوا السعادة فى شعرهم ، فقد ألفت الكتب فى نقده وأهمها كتاب « الموازنة بين أبى تمام والبحترى » للحسن ابن بشر الآمدى المتوفى سنة ٣٨٧ هـ رجح فيه كفة البحترى وحمل على أبى تمام كثيراً .

وقد عقد الآمدى بابا لسرقات البحترى من الشعراء عامة ، ومن أبى تمام خاصة و بلغت عدتها من أبى تمام ثلاثاً وستين . ولكنك تعلم أن السرقة ليست عيباً إلا إذا أغار الشاعر على المعنى واللفظ فلم يكن له فى المعنى إضافة ولا عن

اللفظ غنى ، وقد يكون آخذ المعنى أولى به من صاحبه إذا زاد فيه ومنحه من اللفظ ما جعل له جمالا جديداً

موازنات

وقد نظرت فوجدت أن أكثر سرقات البحترى جعلته أولى بالمعنى من صاحبه ، أفلا ترى البحترى أولى من الفرزدق فى قوله :

أعطيتنى حتى حسبت جزيل ما أعطيتنيه وديعة لم توهب

أخذه من قول الفرزدق :

أعطيتنى المال حتى قلت يودعنى أو قلت أعطيت مالا قد رآه لنا

والفرق ظاهر بين سلاسة البيت الأول وركاكة الثانى . وازن بين كلمتى حسبت وقلت ، وانظر إلى الركاكة مستقلة فى قوله مالا قد رآه لنا ثم فى تكرار كلمة قلت فى الثانى

كذلك هو أولى من أبى صخر الهذلى فى قوله

وادع يلعب بالدهر إذا جد فى أكرومة قلت هزل

أخذه من قول الهذلى :

أغر أُسَيْدِىٌّ تراه كأنه إذا جد يعطى ماله وهو لاعب

وحسن البحترى ظاهر فى اختياره الألفاظ الواسعة الدلالة على مراده كوصف ممدوحه بالوداعة وجعله يلعب الدهر والدلالة بكلمة هزل على عظيم ما أتى من الجود إذ كأنه قد أخرجه بتلك الكلمة عن القصد والحكمة

وكذلك قوله :

وكأن فى جسمى الذى فى ناظريك من السقم

هو من قول المنصور بن فرج

حل فى جسمى ما كان بعينيك مقيما

وفى بيت البحترى يتجلى ذوقه فى اختيار اللفظ المناسب للغزل فوازن بين قوله ناظريك وقول المنصور بعينيك وأبانته عن الموصول بقوله من السقم فى حين

تركه الآخر مبهما فلم ندر ما فى عينيه هل هو سقم وفتور طرف أم عمى أو عمش أو عمص أو غيرها ثم انظر بعد إلى فضول كلمة مقيما فى البيت الثانى فان المعنى فى غنى عنها

ومن سرقاته من أبى تمام قوله

وإذا اجتداه المجتدون فأنه يهب العلا فى سيبه الموهوب

هو من قول أبى تمام

تدعى عطاياه وفرا وهى إن شهرت كانت فخاراً لمن يعفوه مؤتنفاً

وبيته خير من بيت أبى تمام . ويكفى أنه وصل إلى المعنى من أقرب طرقه فى قوله يهب العلا فى سيبه الموهوب على حين أن أبا تمام أكثر من القضايا والتعليق بالشرط والجواب مع إنقاص قدر العطايا بقوله إن شهرت كأن لها حالين من خمول وشهرة ، ومقتضى المدح جعلها كلها من طراز واحد .

وقوله :

ولن تستبين الدهر موضع نعمة إذا أنت لم تدلل عليها بحاسد

من قول أبى تمام .

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

وفضل أبى تمام فى سبقه إلى المعنى واختراعه له ولكن بيت البحترى حسن رصين لو لم يكن لأبى تمام فضل السبق . وقوله :

ولو ان مشتاقا تكلف فوق ما فى وسعه لسعى إليك المنبر

من قول أبى تمام :

تكاد مغانيه تهش عراصها فتركب من شوق إلى كل راكب

وحسن بيت البحترى ظاهر ظهور التكلف فى استعارة أهشاشة والركوب للعراص فى قول أبى تمام :

وهذا باب واسع فلنقف منه عند هذا الحد

تم والحمد لله ما أردنا من بيان حياة البحترى ورجاؤنا إلى الله أن يوفقنا للكشف عن شخصيات عظيمة كهذه الشخصية من بين رجال الأدب العربى قديما وحديثا ؟